اسم الدرس : تفسير سورة الفجر

تصنيف الدرس: مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نستكمل بإذن الله عز وجل تفسير سور من جزء عم، إن شاء الله عز وجل نأخذ اليوم تفسير سورة الفجر، يقول الله عز وجل في هذه السورة العظيمة:

بسم الله الرحمن الرحيم: (وَٱلفَجرِ – وَلَيَالٍ عَشر –وَٱلشَّفعِ وَٱلوَترِ – وَٱلَّيلِ إِذَا يَسرِ – هَل فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجرٍ) [الفجر : 1-5]

ثم يقول الله عز وجل:(أَلَمَ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) [الفجر : 6]

هذه السورة من ضمن جزء عمَّ، وأغلب جزء عمَّ –كما تكلمنا من قبل في المقدمة– سورةٌ مكية، آياتها قصار، أغلبها تتكلم عن مواضيع معينة؛ من معرفة الله سبحانه وتعالى، والدار الآخرة، وإهلاك الظالمين، وقدرة الله عز وجل على البعث.

السورة بدأت بقسم، واو القسم (والفجر) على خلاف سورة البلد التي بدأت بـ (لا أقسم).. وسبق أن تكلمنا عن (لا أقسم) من قبل وعن الخلاف فيها، لكن هنا هذا قسم معتبر –أو ليس فيه خلاف– بعكس الآخر، وإن كان جمهور المفسرين قال (فلا أقسم) –كما قلنا المرة السابقة– هي بمعنى (أقسم).

(والفجر وليال عشر والشفع والوتر).. دومًا الأقسام في القرآن إما أن يكون متفق على معناها (أي أن ما يُقسم الله به يكون واضحًا)، أو قد يحدث خلاف بين المفسرين على ماهيَّة القسم.

وأسباب الخلاف ما بين المفسرين في القسم أو ما هو القسم؟ فمثلًا قول الله عز وجل: (والنازعات)، (والصافات) هذه من الآيات التي فيها خلاف ما بين المفسرين، ما هي النازعات؟ ما المقصود بالنازعات؟ هل هي الملائكة؟ أم الرماح التي تنزع؟

(والعاديات) هل هي الخيل؟ هل هي الإبل؟ (والمرسلات) هل هي الملائكة؟ أم الرياح؟ (والصافات) هل هي الملائكة أم المؤمنون؟ فمن أسباب الخلاف –في هذه الأقسام– أن الله يقسم بالصفة وليس

الموصوف؛ فلم يقل (والملائكة صافات)، أو (والملائكة الصافات)، بل قال (والصافات)، فهذه الصافات قد تكون وصفًا للملائكة أو غيرها، أقسم الله –عز وجل– بالوصف ولم يصرّح بالموصوف، وهذا يعطي تنوعًا، أو يكون الغرض التركيز على هذه الصفة؛ كالنازعات مثلًا.. هل المقصود الملائكة؟ لم يقل الله (والملائكة النازعات)، بل قال (والنازعات غرقًا).

فهذا من أسباب الخلاف؛ أن يذكر الصفة ولا يذكر الموصوف بالصفة، أو أن يذكر أمرًا مثل (والفجر) مع أن الفجر معروف، لكن أي فجر بالتحديد؟ هنا وقع الخلاف، كما في (وليال عشر) أي عشر ليال؟ عشر رمضان؟ أم عشر ذي الحجة؟ أم أول محرم؟ كما سنرى بعد قليل.

إذًا أيضًا من أسباب الخلاف بين المفسرين أن يذكر الله جنس شيء، لكن لا يحدد ما هو بالضبط... هل المقصود فجر معين؟ أم أي فجر؟

أو من أسباب الخلاف في القسم: أن يقسم الله بشيء واضح معروف، لكن يختلفون هل هو حقًا المقصود بالقسم؟ أم أراد الله شيئًا من وراء ذِكْرِ ذلك؟ كقول الله –عز وجل– (والتين والزيتون)[التين :1] التين معروف، لكن هل يريد الله –سبحانه وتعالى– أن يقسم بالتين؟ أم بالأماكن التي ينبت فيها؟ كأرض الشام وفلسطين مثلًا لأنه مهبط الوحي، والدلالة على ذلك أن المعطوف عليه القسم (وطور سنين)[التين :2] مكان الوحي لسيدنا موسى في أرض سيناء، (وهذا البلد الأمين)[التين :3] مكان الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة، فالأول هو مكان نزول الوحي على سيدنا موسى، الشام أو في فلسطين.

إذًا دائمًا نجد أسباب الخلاف بين المفسرين في القسم في القرآن:

– إما أن يذكر الله الصفة ولا يذكر الموصوف.

– أو عدم تحديد جنس المقسم به مثل (وليال العشر) ما هي بالضبط؟

– أو أن يراد به شيء غير المتبادر للذهن (والتين والزيتون).. كأن يكون المقصود المكان الذي ينبت فيه التين وليس التين نفسه.

فقال الله عز وجل: (والفجر وليال عشر) واضح أن هذا قسم بالزمان (والفجر وليال عشر..... والليل إذا يسر) قسم بالزمان، لكن المفسرين اختلفوا في الشفع والوتر؛ هل أيضًا يدخل في الزمان؟ أم له معنى آخر؟ أما الأقسام الثلاث: الأول والثاني والرابع، (الفجر وليال عشر والليل إذا يسر)[الفجر :1-3] ،من الواضح أنه زمن.. لكن هل أراد الله -سبحانه وتعالى- حينما أقسم به مطلق الزمان؟

هناك من قال: إن المقصود هو أي فجر مطلق الزمان، والقسم هنا للدلالة على قدرة الله الذي يأتي بالفجر بعد طول الليل، والذي يجعل هناك تتابعًا في الزمان؛ فكما أن من سنة الله -عز وجل- التتابع بين الليل والنهار، فكذلك قدرة الله المطلقة في التداول بين المؤمنين والكافرين، فينتصرون أحيانًا ويهزمون أحيانًا.. (وتلك الأيام نداولها بين الناس) [آل عمران :140]فكما أن هناك مداولة بين الليل والنهار فكذلك هناك مداولة بين الحق والباطل.

بعض المفسرين قال: بل المقصود تحديد فجر معين، وهو فجر يوم النحر، وأن الليال العشر هي أول عشرة أيام من ذي الحجة، وأن المقصود هنا هو ذكر موسم الطاعات، التي "ما من أيام العمل الصالح أحب فيها إلى الله من هذه الأيام"[1]، وأن المقصود هو قيمة العمل الصالح في هذه الأيام.

وبعضهم قال: إنه فجر أول يوم في السنة، فجر شهر محرم، وأن الليالي العشر هي أول عشرة أيام من محرم.. فلماذا اختاروا هذا القول؟

قالوا إن المقصود أن الله يقسم بالزمان -وهذا رأي الشيخ حبنكة الميداني وهو من المعاصرين- قال إن الله يقسم بالزمان وليس المقصد قيمة العبادة في الزمان (لاحظ أن غالب المفسرين قالوا إن الغرض هو: ذكر قيمة الطاعة في هذا الزمان؛ فهذه أزمنة مشرفة، فكما أقسم الله في السورة التي تليها بأماكن مشرفة مثل مكة في سورة البلد، فهنا في سورة الفجر أقسم بالأزمنة المشَرفة التي شرفها الله تعالى، وهذا قول من قال إن المقصود بالزمان هو ليالي العشر من ذي الحجة، أو ليالي العشر من رمضان).. أما من قال إن المقصود بالزمان هو عشر محرم، قصد أن هذه الأزمنة هي التي أهلكَ الله فيها الظالمين، فالليالي العشر - لو قلنا إن الفجر هو فجر عاشوراء أو فجر أول محرم- فقد كان إهلاك فرعون في يوم عاشوراء، وقال إن غالب إهلاك الظالمين يكون في هذا الوقت، وحاول أن يستقصي إهلاك قوم لوط وقوم عاد وقوم ثمود.

[1] سنن أبي داود 2438 – حديث صحيح

فقال: إن الشفع والوتر المقصود بها سبع ليال، وثمانية أيام.. السبع وتر، والثمانية شفع، وأن الشفع والوتر تعبر عن الريح الصرصر اللي أرسلت على عاد (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية)[الحاقة :1-2] فقال إن المقصد هو أزمنة إهلاك الظالمين واستدل على هذا بقول الله عز وجل بعدها: (فصب عليهم ربك سوط عذاب)[الفجر:13].

إذًا فالغرض من القسم بالزمان واحد من ثلاثة:

- الغرض الأول: إظهار قدرة الله المطلقة على المداولة بين الليل والنهار، والمداولة بين الأزمنة، وأن سنة الله –عز وجل– جارية في المداولة بين الليل والنهار، الفجر والليل، وأن هناك تعاقبًا، وكما أن هناك تعاقب بين الليل والنهار، فهناك أيضًا تعاقب بين الحق والباطل، وهذا هو الغرض الأول من القسم بهذا الزمن.
- الغرض الثاني: ذكر الأزمنة المشرفة التي يستحب فيها فعل الطاعات، ويأنس لها المؤمن، وينتظرها بشوق حتى يبذل فيها الطاعات ليُرضي الله –عز وجل– أو ليرضى الله عنه.
- الغرض الثالث: ذكر الأزمنة التي أهلك الله –عز وجل– فيها الظالمين.

سنحاول طبعًا إيضاح علاقة كل غرض منهم بجواب القسم أو علاقته ببقية السورة.

(والفجر – و ليال عشر) [الفجر:1-2]

جمهور المفسرين بعضهم اعتبر أن القول الراجح هو أن (ليال عشر) هي عشر ذي الحجة.. وقد ورد أثر ضعيف أن هذه العشر هي عشر ذي الحجة.

كما قلنا أن هناك من قال أنها العشر الأواخر من رمضان، وقيل أيضًا أنها العشر الأوائل من محرم، وهناك أيضًا من قال من المعاصرين أنها العشر الأواسط، و هذا قول غريب جدًا، لكنهم يقولون إن الفجر في نهار العشر الأواسط يكون فيها البدر شبه مكتمل وهناك ضوء، أي أن تلك الليالي بها ضوء.

(و الفجر – و ليال عشر – والشفع والوتر – والليل إذا يسر)[الفجر :1-4]

الشفع والوتر أيضًا فيها أقوال كثيرة، فالمقصد منها إما أن يكون:

– أن كل طاعة شفع وكل طاعة وتر، كتشبيه السلف عندما ضربوا مثالًا بذلك صلاة الفجر شفع، وصلاة المغرب وتر، وهذه في أول النهار وتلك في آخر النهار وبداية الليل؛ كأن الإنسان يفعل كل أنواع الطاعات.

– وقيل الشفع والوتر: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة، يوم عرفة هو التاسع، والشفع هو اليوم العاشر.

– وقيل الشفع والوتر: الشفع كل المخلوقات (و من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) [الذاريات:49]، والوتر هو الله –عز و جل– {إن الله وتر يحب الوتر} الله عز وجل واحد –سبحانه وتعالى– أحد، سبحانه وتعالى يحب الوتر، فقيل الشفع المخلوقات، والوتر هو الملك سبحانه وتعالى.

(والليل اذا يسر) [الفجر :4]

مشهد الليل والمؤمن يسري فيه بفعل الطاعات.

إذا قلنا أن الغرض من هذه الأزمنة أنها أزمنة مشرفة في الطاعات أيًا كانت؛ سواءً العشر الأوائل من ذي الحجة أو العشر الأواخر من رمضان، وأن الشفع والوتر المقصد منها هو التنوع في الطاعات، إذًا نقول كملخص ما هو الغرض من هذه الأزمنة المخصوصة؟ المؤمن يطمئن بطاعة الله، لا يطمئن بالأسباب... هذا هو ملخص السورة.

المؤمن يطمئن بطاعة الله، فالمؤمن يجتهد في الطاعة طوال العام، لكن هناك أزمنة معينة يخصها المؤمن بالطاعة، لأن الله شرفها.. هذه الأزمنة المخصوصة تكون زادًا للمؤمن طوال العام.

تجد مثلًا من يقول: كي أستطيع العمل طوال العام لابد أن أذهب عشرة أيام لشاطئ من الشواطئ للترفيه... لابد أن أحصل على فترة من الراحة، هذا بمثابة زاد لي طول العام.. كذلك المؤمن يحتاج إلى أوقات يتفرغ فيها للطاعة والذكر، حتى يكون هذا الذكر وهذه الطاعة حصنًا له وزادًا طوال العام.

هناك حديث يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم –الحديث إما مرفوع أو موقوف على أبي هريرة–:

(الشتاء ربيع المؤمن)[2].. الشتاء ربيع المؤمن.. الناس ينظرون للشتاء بمنظور معين، و المؤمن ينظر للشتاء بمنظور مختلف تمامًا.

الشتاء بالنسبة للمؤمن ربيع، لماذا؟

(قصُر نهارُه فصامَه، وطال ليلُه فقامَه).. نهاره قصير فيصوم، وليله طويل فيصلي قيام الليل.. المؤمن ينظر للأزمنة نظرة مختلفة عن الناس، وينظر للأماكن نظرة مختلفة.

سيدنا إبراهيم قال (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم)[إبراهيم :37]، طبيعي أن من يسافر بأهله إلى مكان ما، فإنه يذهب بهم إلى مكان مليء بالزرع.. لماذا اختار إبراهيم عليه السلام هذا المكان بالذات؟

لأن الله اصطفاه له: (عند بيتك المحرم).. فالمؤمن يختار الزمان والمكان بنظرة ربانية، وليس بنظرة الناس.

فهذه الأزمنة بالنسبة للمؤمن هي الزاد، هي زاد الطمأنينة، (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[الرعد :28].

إذًا من الناس من يطمئن بالطاعات، ومن الناس من يطمئن بالأسباب.

فربنا عز وجل ذكر أن الطاعة تبقى، وأن الأسباب تزول، و قال في آخر السورة {يا أيتها النفس المطمئنة} ماذا؟ {المطمئنة} أي التي اطمأنت بالطاعات، بصلاة الفجر فكانت في ذمة الله، وبالليال العشر، وبأنواع الطاعات.. الشفع منها و الوتر، وقامت الليل، وفعلت الطاعات في الليل {والليل إذا يسر}.. لكن كل الأسباب الأخرى التي ذُكرت في السورة زالت وزال أهلها وزال مُلاكُها ولم تنفعهم شيئًا.

[2] مسند أحمد مسند أبي سعيد الخدري رضى الله عنه 11716، إسناده ضعيف

إذًا من المعاني الأساسية التي في السورة أن هناك من يطمئن بالطاعات فيموت وتكون لحظة الموت له نداء (يا أيتها النفس المطمئنة)[الفجر :27]

وهناك من يطمئن بالدنيا (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن ءاياتنا غافلون)[يونس :7] أي اطمأنوا بالدنيا، لم يعد يطمئن بالله، مطمئن بالدنيا (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) [الحج : 11] أي: اطمأن بالخير لا بالله..

إذًا تبدأ السورة بزمان مليء بالطاعات، وأن هذا الزمان ينتظره المؤمن، ويجتهد في هذه الأزمنة بالطاعات فيجعله مطمئن بالله دائمًا، هذا هو الزاد الذي يجعل المؤمن في حصن حصين من شياطين الإنس والجن طوال العام بسبب هذه الأزمنة المباركة، أزمنة تنزل فيها البركات، تنزل فيها الرحمات، ويستغلها المؤمن.

(وَٱلۡفَجۡرِ – وَلَيَالٍ عَشۡرٍ – وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ – وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ)[الفجر :1-4].. مشهد الليل وهو يمشي ويَسْرِي، والمؤمن طوال الليل يفعل الطاعات ويذكر الله عز وجل، ويقوم الليل وتتنزل عليه الرحمات، والليل دائمًا مهبط الرحمات، والقرآن مرتبط بالليل.. دائمًا هناك ارتباط بين القرآن وبين الليل (والليل إذا يسر)[الفجر :4].

وقيل {والليل إذا يسر}: أن هناك من يسري في الليل، وليس الليل فقط هو الذى يسري.. المؤمن يسري في الليل: فالصلاة معراج المؤمن، وكان الإسراء للنبي صلى الله عليه وسلم بالليل (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ).. (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) [الإسراء :1]

إذًا الليل هو زمان سفر المؤمن.. هو الزمان الذي يعرج فيه المؤمن إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ)[الفجر :5]

أليس في هذه الأزمنة كفاية للمؤمن أن ينهل فيها من الطاعات؟

لذي حجر.. أي: ذي عقل، وسنتكلم لماذا قال ربنا في هذا الموضع (حِجر) ولم يقل (عقل) أو (لُبّ)، كما ذُكر في مواضع أخرى في القرآن: {أفلا تعقلون}.. {لأولي الألباب}..

فالله سبحانه وتعالى يخبر أنه أقسم بهذه الأشياء، وأن العاقل هو الذي يتدبر في هذه الأزمنة ويستغلها جيدًا.

فعكس هذا الكلام أن المجنون هو الذي تمر عليه هذه الأزمنة ولا يستغلها، فهو إنسان مغبون هذا الذي تمر عليه هذه الأزمنة ولا يفعل فيها الطاعات.

كيف يطمئن الإنسان في الدنيا وتمر عليه الأزمنة بلا طاعة؟! كيف يعيش مطمئنًا؟! كيف؟!

فإنسان تمر عليه العشر الأواخر من رمضان بدون عبادة، والعشر الأوائل من ذي الحجة بدون عبادة، وعاشوراء بدون عبادة، تمر هذه المواسم بدون طاعات، ثم يبحث بعد ذلك عن الطمأنينة وأنّى له؟! مستحيل أن يعيش في طُمأنينة وهو لا يطيع الله سبحانه وتعالى.. مستحيل!

كيف لا يصلي الفجر في جماعة ثم يبحث عن الطُمأنينة.. (من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله)[3].. يكون مُطمئنًا أنه في ذمة الله.. وأن الله عز وجل يحفظه..

فيخبر الله عز وجل أن في هذه الأزمنة عبرة لأهل الإيمان.

(هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ)[الفجر :5] (حجر) معناه العقل، هنا سمي حجرًا لأنه يحجر الإنسان عن ارتكاب المحرمات، والعقل أو النُّهى أو الحجر كلها أسماء للعقل؛ لأن الوظيفة الأساسية للعقل هي أن يمنعك أو يعقلك بمعنى يربطك، والنُّهى ينهاك، والحجر يحجرك، كلها أسماء للعقل تمنعك عن فعل الحرام.

[3] في صحيح الترهيب والترغيب للشيخ الألباني رحمه الله 420 ،إسناده صحيح

كأن الإنسان الأصل فيه أنه ظلومٌ جهول، ولو تُرك من غير عقل يَفْجُر في المعاصي ويظلم، لكن وجود العقل يمنعه من ذلك، و لكي يعمل العقل بشكل منضبط وسليم، لابد له من طاعة وعبادة، فالامتناع عن المحرمات لابد له من زاد من الطاعات: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[العنكبوت:45] .. إذًا الطاعة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات)[مريم :49] فعندما أضاعوا الصلاة (اتبعوا الشهوات)!

إذًا الإنسان حين لا يكون عنده زاد من الطاعات يسقط في الشهوات ويظلم ، فهذه الأزمنة جعلها الله عز وجل للتذكرة، فالإنسان تمر عليه هذه الأزمنة فيجتهد في الطاعات وحين يجتهد فيها يمتنع عن ظلم الناس، وهذا من لطائف ذكر أحكام الصلاة في سورة البقرة وسط أحكام الطلاق، فالله سبحانه وتعالى قال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين * فإن خفتم فرجالًا أو ركبانًا) [البقرة :238].. ذكر الله هنا:

- الحفاظ على صلاة العصر: فصلاة العصر تكون صعبة جدًا على الإنسان الذي يعمل ويعود لمسكنه فيكون وقت النوم أو الطعام.

- وذكر الصلاة في حال المسايفة وحال الجري: (فإن خفتم فرجالًا أو ركبانًا).

هاتان هما أصعب حالتين في الصلاة –في حالة الاستقرار صلاة العصر وفي حالة عدم الاستقرار وهو يجري وقت المسايفة– وقد ذُكروا وسط آيات الطلاق.. فالذي يستطيع أن يحافظ على الصلاة في هذه الحالات يستطيع أن يعدل بين الناس حتى في أصعب الأزمات مثل الطلاق.. فلا يظلم أحدًا، لأن الطلاق فيه غضب، فيه انتقام للنفس، والإنسان يغضب ويكون عنده حمية.. فمن يحافظ على هذه الصلوات لا يظلم أحدًا، لا يظلم طليقته ولا يظلم أهلها، ولا هي تظلمه ولا أهلها يظلمونه، هذا كله يحدث بالحفاظ على الطاعات في هذه الأزمنة والأوقات.

ولذلك في سورة الفجر، ذكر الله بعد ذلك أنواعًا من الظلم؛ سواءً قوم عاد أو فرعون أو ثمود.. كل هؤلاء كانوا يظلمون الناس ويتجبرون.. (الذين طغوا في البلاد).. لأنه لم يكن لديهم حفاظٌ على الطاعات!!

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)[الفجر :6]: قال فريق من المفسرين هذا جواب القسم، بمعنى يقسم الله بهذا الأزمنة، أي: والله لأعذبن الظالمين، والله لأبعثن الظالمين ولأحاسبنهم، ثم ذكر أدلة على قدرة الله على إهلاك الظالمين.

فمن قال أن الغرض من القسم في بداية السورة هو (إظهار قدرة الله على تداول الليل والنهار)، قال أن علاقة هذا بالآيات التي بعدها هو أنه: كما أن الله عز وجل يداول بين الليل والنهار كذلك هو قادر على إهلاك الظالمين، وكما أنه يُذهب الليل كذلك يذهب الطغاة، وكما أنه يأتي بالفجر فهو يأتي بالصالحين.

ومن قال أن الغرض من هذه الأزمنة هو فعل الطاعات، قال أن هناك فريق يطمئن بالطاعات وآخر يطمئن بالأسباب.. فالطاعة والعبادة هي من أهم أنواع الزاد التي تعين على حرب الطغاة، كما قال تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)[يونس :87].. هذه أوامر يحافظ الإنسان عليها في عهد الاستضعاف، أي في زمن الاستضعاف اجعلوا بيوتكم قِبْلة –أي قِبَل بعضها البعض أو اجعلوها متوجهة للقبلة– فيسهل تلاقيكم، وعندما تتقابلون تُصلُّون، وتتذكرون بُشرَيات الله ووعده (وبشر المؤمنين).. هذه من وسائل محاربة الطغاة؛ بذل الجهد في الطاعات.

ومن قال أن المقصد من هذه الأزمنة أنها أزمنة أهلك الله فيها الظالمين، فذكر الله عز وجل نماذج لإهلاك الظالمين...

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)[الفجر :6] هنا تجد شيئًا غريبًا جدًا، أن الله ذكر ثلاثةَ أقوام (عاد وثمود وفرعون)، واختار أكثر ثلاثة ظالمين وجبارين، ونجد أن مع كل واحد ذكر الله سبحانه وتعالى قيدًا معينًا.. فمع عاد قال "ذات العماد"، ومع ثمود قال "الذين جابوا الصخر بالواد" ، ومع فرعون قال "ذي الأوتاد".. فما معناها؟ وما الغرض من ذكر هذه القيود؟!

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)[الفجر :6] .. بالرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ذلك، لكن المؤمن حين يقرأ القرآن يوقن أن ذلك حدث، فكأنه يراه بعينه تصديقًا بالقرآن ويقينًا.. كأنه رأى إهلاك عاد بعينه!

(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)[الفجر :7] اختلفوا في (إرم) هل هي مدينة أو قبيلة أو المقصود بها القِدَم، ورجَّح أكثر المفسرين أنها قبيلة، و (ذات العماد) أي: ذات البنيان الشاهق، ومن قال أنها قبيلة قال: كان طولهم عظيمًا، وأجسامهم عظيمةً، كانوا يرفعون الصخر ويلقونه على أي عدو لهم بكل سهولة، فذات العماد تدل على التمكن والقوة، إما في أجسادهم أو في الأسباب التي كانت معهم، أو قوة القصور والبيوت التي شيدوها.

وقيل (ذات العماد) معناها أنهم كانوا يتنقلون في أي مكان يريدونه، ويأتون بأعمدة ويبنون أي بنيان يريدونه، فكانوا يتنقلون في كل البلاد كيفما أرادوا.

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)[الفجر :8].. أي القبيلة التي لم يَخلق الله عز وجل مثلها، أو المدينة التي لم يُبنَ مثلها، أي أنهم وصلوا لقمة السيطرة على الأسباب.. (وظن أهلها أنهم قادرون عليها)[يونس :24] وصلوا لقمة التمكن؛ مثل الغرب حاليًا يشعر أنه وصل لقمة التمكن من الأسباب لدرجة أنه يريد أن يكتشف سر الحياة وسر الموت.. ولن يستطيع! لكن هو يظن في مرحلة من المراحل –والعياذ بالله– أنه أصبح مسيطرًا على كل شيء، وأنه لا يحتاج لله سبحانه وتعالى، لذلك يلحد كثيرٌ منهم.

أما ثمود فقال الله عز وجل عنهم: (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)[الفجر :9].. أي قطعوا الصخر في الأودية –يجوب الصحراء: أي يَقطَع الصحراء سيرًا– (جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ")..كانوا إذا أرادوا أن يبنوا ينحتون في الصخر: (وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين)[الشعراء :149] في سورة الشعراء و "آمنين" في سورة الحجر، ولذلك عندما أهلك الله عز وجل عادًا بالريح، اعتقدت ثمود أن الذي سيحفظهم هو الصخر عندما يأتيهم إهلاك بالريح، لذلك قال الله (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين)[الحجر :82].. أي آمنين من نوائب الدهر..

فدائمًا الإنسان الساذج عندما يرى أحد أهلكه الله عز وجل بشيء ما –الريح مثلًا– يظن أن وسيلة الإهلاك ستكون الريح فيتحصن منه، مع أنه من الممكن أن يأتي العذاب من شيء مختلف تمامًا.

كما قال الله: (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب)[الحشر :2].. من الممكن أن تأتي إليه من قلبه أو من عقله أو من جنوده أو من ابنه أو من زوجته، من حيث لا يحتسب! لا يكون الإهلاك بنفس الطريقة، لذلك كان هناك تنويع في العذاب؛ مرة صيحة، ومرة ريح، مرة خسف، مرة من

السماء، مرة من الأرض ، فكل شيء هو من جند الله سبحانه وتعالى: (وما يعلم جنود ربك إلا هو)[المدثر:31].

إذًا (إرم ذات العماد – التي لم يخلق مثلها في البلاد)[الفجر:7-8].. قمة السيطرة على الأسباب والتحصن بالحصون والقصور وقوة في الأجساد، وثمود قمة التحصن ليس فقط لأنهم يبنون قصورًا، بل كانوا يبنون بيوتهم داخل الجبال، بحيث لو أتت الرياح لا يهلكون.. فأهلكهم الله بالصيحة.. لم يُهلكهم بالريح وإنما بالصيحة... (وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ)[الفجر :9]

(وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ)[الفجر :10]..

قالوا الأوتاد: قد تكون الجنود.. وكان فرعون يتحصن بجنوده، ولا يتفرعن فرعون إلا بجنود... فقالوا الوتد هنا يُقصد به شيء معنوي –أي الجنود– (وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ)[الفجر :10] ..والوتد هو الذي يُثبِّت الشيء.. أي: الذي ثبت ملك فرعون هم الجنود.. (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ)[القصص :8] .. لذلك اشتركوا معه في الإثم.

وقيل الأوتاد: هي التي كان يعذب بها المخالفين له.. كان يأتي لهم بأربعة أوتاد؛ اثنين لليدين واثنين للرجلين.. ويصلبوا ويعذبوا! وفعل ذلك بامرأته.. الذي كان يخالفه كان يعذبه!

وقيل الأوتاد: المباني الشاهقة. قال بعض المعاصرين: أنها الأهرام.

إذًا المقصود بذي الأوتاد إما أنه كان يتحصن بالجنود أو بالمباني أو بتعذيب المخالف.

الشاهد أن (ذات العماد والصخر بالواد وذي الأوتاد) هذه الثلاثة كانت وسائل يتحصنون بها ويتقوون بها ويطمئنون بها، فأخبر الله عز وجل أن هذه الأسباب لم تغنِ عنهم شيئًا! لا (ذات العماد) نفعتهم، ولا (الصخر الذي بالواد) نفعهم، ولا (الأوتاد) نفعته! بل أغرقه الله وأهلكه هو وأوتاده.. لذلك عندما قال الله تعالى عن قارون "فخسفنا به وبداره"؛ داره لم تنفعه، لم تمنعه من الخسف (فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ)[القصص :81] أي لم تنفعه.

فعندما يذكر الله تعالى هذه القيود في هذه السورة تحديدًا –التي ذُكر فيها الفجر، مَن يصليه في جماعة يكون في ذمة الله، والتي ختمت بالطمأنينة (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ)[الفجر:27]– فيخبر الله أن هناك

صنفًا من الناس يطمئن.. بماذا؟ يطمئن بالأسباب –بذات العماد وبالصخر بالواد وبذي الأوتاد– وعندما يطمئن الإنسان بهذه الأشياء يبدأ في الطغيان..

فمثلًا فرعون كان معه جنود كثير –إذا قلنا إن الأوتاد هنا تعني الجنود– فهو معه جنود كثر فلا يخشى شيئًا، فيتولد لديه إحساس أنه لا يحتاج إلى الله –والعياذ بالله– هذا هو الاستغناء... يبدأ هكذا؛ سيطرة على الأسباب تُشعره بنوع من الاستغناء، الاستغناء يؤدي إلى الطغيان، والطغيان يؤدي إلى الفساد.. هذا هو التسلسل.

لذلك عندما ذكر الله تعالى هذه الأسباب قال: (ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ)[الفجر:11] عندما طغى ظهر الفساد، (فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ)[الفجر:12]

طغى: تجاوز الحدود، وأي مكان لا توجد فيه حدود وقواعد تُطبَّق يظهر فيه الفساد وينتشر.

إذًا يبدأ الإنسان أولًا بالسيطرة على الأسباب، ثم شعور بالاستغناء، يؤدي إلى الطغيان، يؤدي إلى انتشار الفساد.

المؤمن يقطع هذه السلسلة بأنه مهما كان معه من أسباب فهو لا يطمئن إلا بالله.. (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ)[الرعد :28]... مهما كان معه من أسباب فهو يتعب ويعمل ويجتهد ويأتي بالطعام ويأكل وبعد أن ينتهي من طعامه يقول: (الحمدلله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)[4]، فالمؤمن يعترف أنه لم يكن ليحدث له شيء إلا بفضل الله! لذلك قال الفقير المؤمن لصاحب الجنتين الكافر (وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ)[الكهف :39] ماذا تعني ما شاء الله لا قوة إلا بالله؟

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ أي أن الله تعالى شاء لهاتين الجنتين أن يوجدا فوُجدتا، ولو شاء الله أن ينزل المطر ولا يكون عندك زرع أو لا يثمر ولا توجد لك جنة لحدث ما يشاء الله! فما شاء الله يكون.. فإن قلت: ولكني تعبت واجتهدت، أقول لك: قوتك هذه من عند الله! (ما شاء الله لا قوة إلا بالله).. لذلك الفرق بين كلمة صاحب الجنتين عندما قال هذه جنتي التي تعبت فيها، هذه مِلكي وقال

[4] جزء من حديث 4023 في سنن أبي داود ،حديث حسن ،باقي الحديث (من أكل طعاما ثم قال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)

(مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا)[الكهف :35]، وبين ذي القرنين عندما بنى السد وتعب، وقال لهم: أعينوني بقوة وفكر وخطط وخلط النحاس مع الحديد.. وفي آخر الأمر ماذا قال؟

قال (قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى)[الكهف :98]، فهل سيظل إلى الأبد؟ لا، (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ)[الكهف :98]، فلم يقل ما أظن أن تبيد هذه أبدًا.. هذا هو الفارق؛ أن المؤمن مهما أوتي من أسباب هو لا يطمئن إلا بالله، لا يطمئن بالأسباب أبدًا، هو يعلم أن الأسباب تأتي وتذهب في لحظة.

النبي –صلى الله عليه وسلم– أخذ بكل الأسباب في الهجرة؛ أخذ معه دليلًا للطريق –حتى وإن كان كافرًا–، ووكّل مَن يمحو آثارهم، ومَن يأتي له بالطعام... ورغم كل ذلك عندما جاء المشركون فوقهم أعلى الجبل، لم يهتز يقينه ولم يتأثر، وإنما قال: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[5].. لأنه منذ البداية لم يطمئن بالأسباب، وإنما هو مطمئن بالله، لكنه يأخذ بالأسباب طاعة وعبودية لله.

فالله تعالى يخبرنا أن هناك مَن يطغى بالأسباب، يطغى بالأموال، يطغى بذات العماد أو بالصخر بالواد أو بذي الأوتاد، وليس فقط يفسد في الأرض، وإنما أيضًا يطغى على مَن يقول له كلمة الحق ويعذبه.. (ذي الأوتاد) كما ذكرنا أن فرعون كان يضرب الوتد في الأيدي وفي الأرجل ويعذب مَن يخالفه حتى يموت، أو الجنود الذين كانوا يستعملون أدوات التعذيب، أو المباني الشاهقة التي كانوا يتخذونها للعب واللهو.

(وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد)[الفجر :10-11] إذًا ذكرنا أولًا السيطرة على الأسباب، ثانيًا الاستغناء، ثالثًا الطغيان (الذين طغوا في البلاد)، لم يعد هناك مَن يقول له اتقِ الله، لم يعد هناك مَن يقول له أي شيء.. (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه)[القيامة:5] عندما يطغى، ما هو الطغيان؟

هو تجاوز الحد.. (كلا إن الإنسان ليطغى)[العلق :6] متى يطغى؟ (أن رآه استغنى)[العلق:7] حينما يرى نفسه مستغنيًا، لا يحتاج إلى الله في شيء كالملحد –والعياذ بالله–، فالملحد يقول لماذا تحتاج إلى إله –والعياذ بالله–؟ هو يظن أنه لا يحتاج إلى الله.. (وظن أهلها أنهم قادرون عليها)[يونس :24]

(الذين طغوا في البلاد)[الفجر :11] (في) تدل على عمق الطغيان؛ في كل البلد.. أي أصبح يريد أن يطغى على البلد كلها ويسيطر عليها كلها، (الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد)[الفجر :11-

[5] صحيح البخاري رقم 3653

12]؛ ليست [فأفسدوا] لا بل "أكثروا فيها الفساد"، كما ذكرنا أن الإنسان عندما يطغى لا شيء يُوقفه، حينما يغيب ذكر الدار الآخرة عنه يطغى ويفسد، "فأكثروا فيها الفساد" ما النتيجة؟ (فصب عليهم ربك سوط عذاب)[الفجر:13] أين سيذهبون من الله!!

الذي يغتر بذات العماد، أو بالصخر الذي بالواد، أو بذي الأوتاد، الذي يغتر بقنابل نووية، يغتر بالجنود، يغتر بالقصور، الذي يطغى ويظلم العباد ويعذبهم.. أين سيذهب من الله؟!

الأمر في غاية اليُسْر: "فصب عليهم ربك سوط عذاب"، كل هذا انتهى بسهولة ويسر وكأن شيئًا صُبَّ عليهم وانتهى الأمر.. (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا)[مريم :98].

لذلك كلمة [فصَبَّ] أي العذاب متتابع متتالٍ، فأنت عندما تصب شيئًا فإنه ينزل متتاليًا بعضه فوق بعض، أنزل الله –عز وجل– عليهم عذابًا متتاليًا.

"سوط عذاب".. (سوط): مجموع كلام المفسرين فيها أن فيها ثلاثة معانٍ:

– المعنى الأول الألم.. السوط: أي عذاب أليم مثل ضربة السوط، أي ليس فقط عذاب إهلاك وإنما يتألم ثم يموت لأنه جعل الناس يتألمون، كان يطغى عليهم ويعذبهم، فعقابه لابد أن يكون من جنس عمله، لابد أن يكون فيه ألم، فقالوا السوط: الألم.

– وأيضًا السوط فيه معنى السرعة الخاطفة.. في لحظة ينتهي.. السوط: ضربة سريعة..

– المعنى الثالث في كلمة سوط قالوا: إن السوط لغةً هو مزيج من الضفائر مجموعة إلى بعضها، فقالوا السوط فيه معنى المزج والخلط، إذًا السوط مزيج من العذاب وليس عذابًا واحدًا، أي قد يكون تخويفًا ثم حجارة وإهلاكًا.. فيه تنوع (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ) [الأعراف :133].. ينوع الله عليهم العذاب.

إذًا السوط فيه معنى: الألم، السرعة، التنويع.

وبعض المفسرين كالزمخشري قال: (كل ما حدث لهم في الدنيا هو بالنسبة إلى الآخرة كضربة سوط)..! فعذاب (سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) أو عذاب الإغراق أو الإهلاك أو الحجارة، أو العذاب الذي

جعلهم في الدنيا كأنهم (أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ).. كل هذا العذاب الفظيع.. كل هذا بالنسبة لعذاب الآخرة كأنه ضربة واحدة فقط، والعذاب كله مدخر له في الآخرة.

(فَصَبَّ): عذاب متتالٍ... السوط: الألم، السرعة، التنوع، ويكون له في الآخرة أضعاف أضعاف ما لاقاه في الدنيا "سوط عذاب".

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[الفجر :14].. ما معنى (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)؟ حينما يطول ظلم الظالم قد ييأس الناس ويشك البعض في قدرة الله، فيخبرك الله –عز وجل– أنه له بالمرصاد! وأن المدة التي طغى فيها قوم عاد، وطغى فيها قوم ثمود، وطغى فيها فرعون وجنوده لم يكن الله –عز وجل– بغافلٍ عنهم، ولكن كان لهم بالمرصاد، بالتأكيد إن ربك –الذي ربَّاك بنعمه– لم ينسكَ ولم ينساهم، يمهلهم ولا يهملهم.. (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[الفجر :14]

(الرصد) لغةً: عندما يترك الأسد فريسته تقترب وتقترب، ثم يحفر لها حفرة وتقترب منها، ثم يفترسها في لحظةٍ معينة والفريسة في غفلة! ولله المثل الأعلى؛ يظل الظالم يظلم ويظلم ويظلم ويعلو ويعلو حتى إذا سقط كان سقوطه أوضح للناس!

هناك من الناس مَن يستعجل عقوبة الظالم، يريد أن يرَ عقوبته فور وقوع الظلم منه، لا... لله –عز وجل– حِكَم كثيرة لتأخير نزول العقوبة على الظالمين، لكن الذي نوقِن به أن الله بالمرصاد! لا أحد يبقى دون عقوبة؛ إما في الدنيا أو في الآخرة، يجب أن يكون عندنا يقين بذلك.. (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ)[إبراهيم :42]

فلا تظن إنْ تأخَّرَ نزول العذاب أن الموضوع قد انتهى.. كلا! (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) للتأكيد [إن واللام في (لَبِالْمِرْصَاد)]، وكأن عقوبة الله عز وجل مقيمة تنتظرهم.. تنتظر لحظة الأمر من الله.. (فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)[يونس:102] في وقت محدد سينزل العذاب، يقرره الله، الله لا يعجل بعجلة أحد، بعض أهل الإيمان يستعجل. قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لخبّاب: "ولكنكم تستعجلون" عندما قال سيدنا خبّاب: (يا رسول الله،.. ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا الله)[6]، سيدنا خباب مستعجل لأنهم

[6] صحيح البخاري رقم 3612

وقعوا في عذاب مدة سنتين أو ثلاثة في مكة.. وظن أن ذلك كافٍ.. ولكن لله حِكَم! قد يتأخر النصر، قد يستمر الظالم في ظلمه للناس سنوات.. لكن إن ربنا لبالمرصاد! هذا يقين، لا شيء يمر هكذا.

وقيل بالمرصاد: أي أن عقوبة الله –عزّ وجل– تنتظره على جسر فوق جهنم، لن يمر من عليه! سيسقط لا محالة! الذي ظلم الناس سيسقط حتمًا!

"إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا".. الظالم لابد أن يسقط في جهنم –نعوذ بالله من الظلم– (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ – فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ – فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ – إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[الفجر:11-14] .

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)[الفجر :15-16] هذا يُعتبر الجزء الثاني من السورة...

عندما تقرأ "إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ..."كأن الآيتين تقول لك أن الله بالمرصاد للإنسان ومع ذلك فإن الإنسان مازال في غفلة منشغلًا بالمال، على الرغم أن ربنا له بالمرصاد والعقوبة تنتظره، ولكنه منشغل بهل سيعطيه الله المال أم لا!! إذا أعطاه فأنعِم بهذا الدين، وإن لم يعطه سخط "رَبِّي أَهَانَنِ".

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)[الفجر :15-16]

هذا الجزء يتكلم عن عقيدة ضالة عند كثير من الناس، مَن يفسر كل شيء بالمال.. التفسير المادي لكل شيء في الحياة.. فلان معه سيارة فاخرة هذه علامة حب الله له، فلان كسب أموالًا إذًا الله يحبه، فلان خسر ماله إذًا الله لا يحبه، فهو يقيس محبة الله على الدنيا.. والحقيقة أنه لا يوجد بينهما علاقة، إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وإن الدنيا عند الله لا تساوي جناح بعوضة.

ولذلك لما مرض أيوب ومكث في بلائه ثمانية عشر عامًا، فلَفَظَه القريب والبعيد إلا رجلين... فقال أحدهما للآخر والله ما أظن إلا أن أيوب أذنب ذنبًا لم يذنبه أحدٌ من العالمين!! انظر تفسيرها!! طالما أنه مرض هذا المرض الشديد فلابد أنه أذنب ذنبًا عظيمًا! لا.. ليس بالضرورة.. هو ابتلاء فقط!

ليس بالضرورة أن يكون الفقر علامة عدم الرضا، والغنى علامة الرضا، هذه طريقة تفكير خاطئة، فالله عز وجل يصححها لنا؛ حتى لا يقول أحد: ياليت لنا مثل ما أوتي فرعون، ياليت لنا مثل ما أوتي قوم عاد، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، هؤلاء ربنا صب عليهم سوط عذاب، ولن ينفعهم ما أنعم الله به عليهم.

لذلك عندما قال ضعفاء الإيمان (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)[القصص :79]، كان رد الذين أوتوا العلم واليقين عليهم: "وَيْلَكُم"! ماذا تقولون؟!أتريدون أن تصبحوا مثل قارون الظالم الطاغية! (وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)[القصص :80].. هذه فتنة تحتاج صبر.

"فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ" انتبه لـ"ابتلاه" في الآيتين "وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ"، إذًا في الحالتين ابتلاء، المال ابتلاء، والفقر ابتلاء، الغنى ابتلاء، والفقر ابتلاء، الحالتان اختبار.. (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)[الأنبياء :35].

"فَأَمَا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ" أي ضيّق "عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ*كَلا" هذه طريقة تفكير خاطئة، كثير من الناس دائمًا يريد أن يعرف هل يحبه الله أم لا، فيقول الله يُحبني، لماذا؟ لأن معي مال كثير!

هذه ليست علامة حب ، فالإنسان من شدّة حبه للدنيا، يُفسّر بها كل شيء في الحياة.

كان المشركون يقولون (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا) وبالتالي (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)[سبأ :35]!

ما علاقة أنكم أكثر أموالًا وأولادًا بـ (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) كما ورد في سورة سبأ.. وفي سورة مريم: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ)[مريم :73] تقول له أنَّ الله يقول: كذا وكذا، فيرد عليك (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)[مريم:73] يردون: نحن معنا أموال كثيرة، ومكاننا أفضل من مكانكم، ما العلاقة؟! أقول لك أنَّ الله سوف يُعذّب الظالم، وهناك جنة ونار، فتقول أنا معي أموال كثيرة! عجبًا! ما علاقة ما أقوله لك بأنّك معك أموال كثيرة!

كما قالت عاد (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)[فصلت :15] نحن أقوياء، أيضًا ما علاقة هذا بما أقوله لك؟!

لماذا يخلط الناس امتلاك الأموال وأنهم لن يُعذَّبوا، إذا أنت معك أموال هذا ليس معناه أن تظن أنَّ الله أكرمك.. وإذا لم يكن معك أموال فقد أهانك... الله قال (كَلَّا) الآيتين قال (ابْتَلَاهُ) (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)[الفجر :15]

بعض المفسرين قال: لكن الله قال بأنَّه أكرمه... وعندما قال هو (رَبِّي أَكْرَمَنِ) قال الله له (كَلَّا)؟؟

انتبه معي في الاستفسار أو الإشكال (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ) يقول الله أنَّه هو أكرمه، ولكن عندما قال هو (رَبِّي أَكْرَمَنِ) قال الله: لا.. فكلامه خاطئ، لماذا كلامه خاطئ؟ لأنَّه يقول (رَبِّي أَكْرَمَنِ) معتقدًا أنَّ هذه هي النتيجة وليست الابتلاء، كان من المفترض أن يقول: ربي ابتلاني فأكرمني لينظر أأشكر أم أكفر.. لكنَّه لم يقل هذا، هو يتكلم أن (رَبِّي أَكْرَمَنِ) معتقدًا أن هذه هي النتيجة وليس أنَّ هذا اختبار، يتحدث عن الإكرام أنه نتيجة ليس أنه اختبار.. وربُنا عزَّ وجل يقول أنَّ الإكرام هو اختبار..

مثل [إن أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا] أنت أكرمت لئيمًا فكانت النتيجة أنه تمرد ليس أنَّك أكرمته لأنَّه يستحق.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَه)[الفجر :16] أي ضَيّق، وهناك معنى ذكره بعض المفسرين (فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أي أعطاه على قدر حاجته فقط، بعضهم قال أنَّ هذا المعنى يتوافق مع قراءة (فقدَّر عَلَيْهِ رِزْقَهُ)، وإن كان الأشهر والأغلب أنَّ معناه ضَيّق.

بعض الناس إذا أتاه على قدر الحاجة فقط يكون أيضًا حزينًا ويريد المزيد.

يقول الله (كَلَّا)! طريقة التفكير هذه خاطئة! (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)[الفجر :17] ما علاقة الآيات السابقة بِـ (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيم* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)[الفجر :17-18]؟

كأنَّ الله يقول لهم أنتم عندما تُكرمون أحدًا تعطونه مالًا وعندما تريدون إهانة أحد تمنعونه المال، لكن هذه ليس معاملتي أنا، هذه مُعاملتكم أنتم كبشر، مُعاملتي أنا: عندما أُكرِم أحدًا أوفقه للطاعة، والإهانة ألا أوفقه للطاعة، لكنَّكم تُحبون الدنيا (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[الفجر:20] لذلك فهذه طريقة معاملتكم.

كُنّا نقول ما العلاقة بين قول الله عزَّ وجل (كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)[الفجر:17-18] وبين تصحيح المعتقد الذي يُفسر كل شيء بالتفسير المادي؟ يقول الله عزَّ وجل بل أنتم لأنكم تحبون المال هذه طريقة إكرامكم وإهانتكم للناس، أمَّا الملك سبحانه وتعالى حينما يُكرم، يكرم بالطاعة وليس بالدنيا، الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وأنتم إكرامكم وإهانتكم للناس ليس بمقتضى العدل، ولكنكم تفعلون ذلك بمقتضى القوة، فحينما تكرمون لا تكرمون اليتيم، لأنَّه ليس له قوة تدافع عنه! أمَّا الله عزَّ وجل فيوفق الذي يستحق للطاعة لأنَّه أهلٌ لها وهي من فضله وكرمه سبحانه وتعالى، إذًا هذه أفعال الله عزَّ وجل، الله لا يظلم أحدًا، لكن أنتم تظلمون! والابتلاءات التي يقدِّرها الله عزَّ وجل من إعطاء المال والمنع فلحكمة.. أمَّا أنتم لا تفعلون ذلك لحكمة! أنتم تفعلون ذلك بمقتضى القوة والظلم، ولكنَّ الله يفعل ذلك بمقتضى الحكمة والرحمة واللطف سبحانه وتعالى.. هذا الفارق الرهيب بين مُعاملة الناس لبعضها ومُعاملة الله للناس، والذي جعل الناس تتعامل هكذا هو: الحب الشديد للمال (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا* وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[الفجر:19-20].

(بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) بعض العلماء قال أن العلاقة بين هذه الآية والآيتين السابقتين، أنَّه حزين (رب أهانن) لأن الله لا يُعطيه المال، وعندما يُعطيه الله المال لا يُعطي هو لأحد! (كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيم).. إذًا أنت تقول (رَبِّي أَهَانَنِ) وعندما يُعطيك الله المال تمتنع عن الشكر فتمنع أموالك عن الناس، وهذه الأموال التي أعطاك الله إياها لا تُعطيها لمن يستحقها كاليتيم والمسكين.

وقال بعض أهل العلم –وإن كان هذا القول يعتبر ضعيفًا– أنَّ المقصود هُنا باليتيم هو النبي صلى الله عليه وسلم (كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)، وأنَّكم تفعلون أفعال الطغيان كفرعون وثمود وعاد وتمنعون الناس عن الطاعة، فسوف يعذبكم الله عزَّ وجل.

(كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) وبعض أهل العلم قال أيضًا (كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) أي: لم تكتفوا بسوء القول بل ضممتم إليه سوء العمل؛ فكان سوء قولهم (رَبِّي أَهَانَنِ) وكان سوء فعلهم (كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) وهو يستحق الإكرام..

(وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)[الفجر:18] لم يقُل ولا تطعمون المسكين، بل قال (وَلَا تَحَاضُّونَ) لماذا قال (وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)؟ لعدَّة أسباب:

أولًا: أنَّ المجتمع يجب أن يكون فيه تكافل حتى لو أنك لن تنفق، يجب أن تدعو الناس للإنفاق.. فكلمة (لَا تَحَاضُّونَ) أي يجب أن يشارك الجميع في إطعام المساكين، إن لم يشارك بالبذل فليشارك بالقول، والدال على الخير كفاعله.

ثانيًا: (كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ* وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)[الفجر:17-18] بلغت القسوة في قلوبهم أنَّه لا ينفق ولا يستطيع حتى أن يدعو إلى الإنفاق، هناك شخص بلغت قسوة قلبه أنَّه لا يستطيع أن ينفق ولا يستطيع أن يقول للناس أنفِقوا، لا يستطيع إخراجها من فمه، لا يستطيع قولها، يشعر أنَّه سيكون كريمًا جدًا لو قال للناس أنفِقوا، فلا يدُل الناس على الخير (وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)[الفجر:18] هو لا يكتفي بعدم الإنفاق فحسب، بل ويأكل حقوق الناس، ليس فقط لا يكرم اليتيم، بل يأكل حقه (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا)[الفجر :19] التراث: أي الميراث يأكل إرث غيره، يأكل إرث اليتيم وإرث المرأة، وإرث الأطفال.

(أَكْلًا لَّمًّا) ما معناها؟ قالوا (لما) بمعنى السف، الذي يسف شيئًا، وقالوا (لما) الذي يأخذ المال الذي يجده ولا يسأل أحلال أم حرام هو! يأخذ أي شيء! كالذي يسير ويأخذ أي شيء يُقابله (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا)[الفجر :19] أيّ أموال أمامه يأخذها، سواء كانت ليتيم، أو مسكين، أو امرأة، أو ميراث..! أي أموال يجدها في طريقه يأخذها! كُل همّه جمع المال (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا)[الفجر :19] يجمع المال ولا يبالي أمن حلال أم من حرام هو، يجمع ويأخذ أي شيء يقابله! لماذا يتصرف

بهذه الطريقة؟ (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) البئر الذي يمتلئ بالمياه بئر جموم (حُبًّا جَمًّا) جمًا أي امتلأ قلبه بحب المال. فيقول الله (كَلَّا) لن تنفعكم هذه الأموال وستنقلب هذه الأحوال وستذهب هذه الأموال... يقول النبي صلى الله عليه وسلم [تَقِيءُ الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة] الأرض ستقيئ وتُخرج الكنوز التي بداخلها يوم القيامة، [فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع ويقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا][7] كل هذا لن ينفع.

(كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)[الفجر:21] الانتقال من واقع الغفلة وواقع حب المال، إلى مشهد يوم القيامة، نقلة تجعل الإنسان يفيق من هذه الغفلة! "دَكًّا دَكًّا".. "وَجَاءَ رَبُّكَ" مشهد مهيب جدًا – سبحان الملك–، يجيء الرب حقيقة، مجيء يليق بجلال وجهه سبحانه وتعالى، جاء لفصل القضاء لا نعلم كيف، (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)[الفجر :22] مشهد عجيب، مشهد عظيم! وجملة "وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ" هذا المشهد المهيب كأنَّه بعد أن زالت الأملاك الواهية، مُلك فرعون وعاد وثمود، كل هذه الأملاك زالت، ولم يبقَ إلا الملك الحقيقي لله سبحانه وتعالى "لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ"..!

فيأتي المِلك سبحانه وتعالى ويأتي المَلَك صفًا صفًا.. (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)[الفجر :22].. وكأنَّه قبل أن يبدأ الحساب ظهرت العقوبة حتى يخاف الناس.. (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)[الفجر :23] ولله المثل الأعلى عندما يدخل المعلم الصف، وهذا الصف به مشاغبون، فأول شيء يفعله يُخرج العصا قبل أن يسأل، لأنَّ هذا الصف غالبه مشاغب مستحق للعقوبة، فللَّه المثل الأعلى "وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ".. جاء بها الله.. تأتي جهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك! كأنَّ وحشًا مفترسًا يريد أن يثور ويأكل: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ)[الملك:8] تتقطع تريد أن ترى أين هؤلاء الكفار وتلتهمهم والعياذ بالله.

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)[الفجر :23]أول ما يرى الإنسان جهنم، قبل أن يقال له أي شيء: (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ)[الفجر :23] لم يُحاسَب بعد، لكن هو يعرف أنَّه كان مخطئًا.

[7] صحيح مسلم رقم الحديث1013 ،كتاب الزكاة

كثير من الناس يظل يجادل، يعلم أنَّ هذا الأمر حرام وأنَّ ما يفعله حرام، لكن يظل يسأل ما الدليل؟ ليس الجميع بالطبع، لكن هكذا غالب النقاشات، هو فقط لا يتذكر ولا يستحضر العذاب الأخروي، إذًا فالحل معه في الوعظ وليس في الأدلة. هناك من الناس من يبحث عن الدليل بالفعل، لكن غالب من يجادل ويجادل هو فقط يريد أن يُريح ضميره، لا يريد أن يؤنبه ضميره، يريد الهروب من النفس اللوامة، يريد أن يفجُر أمامه..

"يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ" هل معنى الآية أنَّه سوف يتذكر أم لن يتذكر؟ "وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ " أي كيف تستطيع الذكرى أن تنفعه الآن! مثل: وأنَّى له التوبة، أي يومئذ يتذكر الإنسان ولكن فات الأوان "وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ " وكيف تنفعك الذكرى في هذا الوقت، ولات حين مناص، ليس هذا الوقت وقت الفرار والندم، انتهى، هذا كان في الدنيا "وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ" أي ولن تنفعك الذكرى.

يقول وقتها عندما يعرف أنَّ توبته لن تنفعه (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)[الفجر:24] الحياة الآخرة، عَلِم أنَّ الحياة الحقيقية في الآخرة وليس في الدنيا، عَلِم أنَّ كل الأسباب –ذات العماد والصخر بالواد وذي الأوتاد– ليس لها قيمة، وأنَّ الحياة الحقيقية في الآخرة (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) [العنكبوت:64]؛ أي هي الحياة الحقيقية الحياة الكاملة.. فيندم "يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي" يا ليتني عملت أعمالًا صالحة تنفعني بعد الموت، هذه الحقيقة التي تغيب عن ذاكرتنا –حقيقة الموت– (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ)[الجمعة:8] انظر إلى كلمة (تفرون) كأننا نفِرّ من ذكره وهو حقيقة لابد لنا منها.

(فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ – وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)[الفجر:25-26] جمهور القراء –مثل حفص– (أن لا يعذِب) (بكسر الذال)، وهناك قراءة بفتح الذال: (لا يعذَب)

ما معنى لا يعذِب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد؟ الاختلاف هو في الهاء في (عذابه)؛ هذه الهاء تعود على من؟ هل على هذا الكافر أم على الله؟

على قراءة حفص (يُعَذِّبُ) هذه الهاء تعود على الله، فيكون معنى الآية: لا يستطيع أحد من البشر أن يعذب مثل عذاب الله.. "وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ" أي لا يستطيع أحد أن يوثق مثل الوثاق الذي يفعله الله، بمعنى: مهما بلغ الطغيان في الدنيا وحاولوا أن يُعذبوا الناس، تعذيب الله لهؤلاء الطغاة أعظم بكثير،

لذلك يخبر الله عن بعض الناس الذين فُتنوا أنَّ سبب فتنتهم أنَّهم "جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ "، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)[العنكبوت :10] هذه في العنكبوت وآية الشعراء (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[الشعراء :97-98] فيخبر الله أنَّ عذابه مختلف.. فهو ليس كعذاب فرعون ذي الأوتاد للناس.. كلا، عذاب الله مختلف تمامًا ولا يُتصور! "لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ" أو لا يقوم بالتعذيب في يوم القيامة إلا الله، الكل ذهب مُلكه ولا يقرر العذاب إلا المِلك سبحانه وتعالى، هذا لو الهاء-في عذابه- تعود على الله.

أمَّا إذا كانت الهاء تعود على الكافر، يكون معنى الآية "لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ" أنَّ الله عزَّ وجل يخُصّ بعض الناس بعذاب مخصوص لا يعذبه أحدًا من العالمين، كما ورد عن عمرو بن العاص -إن كان بعضهم ضعّفه- [أنّ أشد الناس عذابًا ثلاثة: فرعون وأصحاب المائدة والمنافقون] الذين صلُّوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنَّ الثلاثة ظهرت لهم الآيات واضحات ثم أصروا على الكفر (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)[طه:56] فرعون، وأصحاب المائدة على قول أنها نزلت وأكلوا منها ثم كفروا بها، والمنافقين أيقنوا أنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به.

إذًا هناك أُناس يخُصّهم الله بعذاب مختلف، بأشد أنواع العذاب، وقيل أشد أنواع العذاب المقصود في السورة للذي يظلم الناس ويطغى ويعذب الناس ولا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، الذي يبذل القوة في تعذيب الناس وفي عدم إكرام اليتيم وفي ظلم الناس، له عذاب مخصوص لن يُعذَّب به أحدٌ مثله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس -مثل النمل- يعلوهم كل شيء من الصغار)[8] لأنه كان متكبرًا ، فيكون مثل النملة! الناس تطأه بأقدامهم، مثلما كان يمشي متكبرًا على الناس في الدنيا، الناس سوف يمشون عليه في الآخرة.

إذًا لو قلنا بالقول الثاني أنَّ عذابه -الهاء تعود على الكافر- فهناك أناس لهم عذاب مخصوص. مثل قول الله تعالى في سورة الهمزة: (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ - فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ)[الهمزة:8-9] قالوا أن الذين كانوا يسخرون من الناس تُقفَل عليهم سجون معينة، هؤلاء لهم عذاب مخصوص، الذين يهمزون ويُعيّبون على الناس، لهم عذاب مخصوص في جهنم، كما أنَّ في بعض أصناف النعيم مخصوصة لبعض أصحاب

[8] مسند أحمد ،حديث رقم 6677 ،إسناده حسن

الطاعات كذلك هناك أنواع من العذاب مخصوصة لبعض أصحاب المعاصي والظلم والعياذ بالله.. (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)[الفجر:26]

ثم الختام بهذا النداء الذي ينتظره كل مؤمن، هذا النداء الذي يُدخل السعادة على المؤمن، هذا النداء الذي يحوّل الموت إلى لذة، الموت بالنسبة للمؤمن له نظرة مختلفة، الناس تخاف من الموت وترتعب وتفزع، الموت بالنسبة للمؤمن هو متعة الوصول، كما يقول الدكتور فريد الأنصاري (متعة الوصول)..! ما المقصود بمتعة الوصول؟ عندما تكون راكبًا في قطار أو مسافرًا سفرًا طويلًا، مثلًا شخص ذهب ليعتمر مسافرًا عن طريق البَر، والطريق طويل يستغرق أيامًا وليالي، عندما يقارب الوصول، يدُق قلبه.. الموت هو متعة الوصول للقاء الله، عندما تقرأ الحديث، النبي صلى الله عليه وسلم يقول [من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت][9].. لذلك ابن تيمية كان دائمًا يحافظ على آية الكرسي ويتذكر هذا الحديث، [من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت] عندما نسمع هذا الحديث نقول: ما المانع بيني وبين دخول الجنة؟ الموت؟ يا ليتني أموت، والأخبار كثيرة عن السلف في ذلك.

الشاهد أنَّ هذا النداء (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)[فصلت:30] بشريات، (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)[الفجر:27] –اللهم ارزقنا يارب– (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)[الفجر:27] هنا لماذا ذُكِرَت المطمئنة؟ التي اطمأنت بالطاعات، بصلاة الفجر وليالٍ عشر وأنواع الطاعات من الشفع والوتر، و إقامة الليل والليل إذا يسر.. لم تطمئن بذات العماد ولا بذي الأوتاد ولا الصخر بالواد.. اطمأنت بوعد الله وخافت من موعود الله.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي) بعد التعب الذي تعبتيه في الدنيا (إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً – فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)[الفجر:28-29] بعض المفسرين قالوا (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)[الفجر:29] أنَّ الله يخاطب النفس أن تدخل في العبد وترجع له مرة أخرى، الروح ترجع له ثانيةً، وقيل (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)[الفجر:29] أي ادخلي في زمرة عبادي الصالحين –وأنا أميل لهذا القول–.. ادخلي مع أصحابك الصالحين، كقولك: "وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين" تريد أن تكون في وسط زمرة

[9] الامام النسائي رحمه الله في السنن الكبرى رقم 9848

الصالحين، في النهاية سيكون الناس زمرًا ، الذين كفروا زمرًا، وأهل الجنة زمرًا، في أي زمرة ستكون؟ (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي – وَادْخُلِي جَنَّتِي)[الفجر :29–30] نداء تُختَم به السورة يسكب الطمأنينة على أهل صلاة الفجر، أهل الليالي العشر، أهل الشفع والوتر، أهل الليل الذين ساروا فيه وكانوا يَسْرون فيه بالطاعات، الذين لم يطمئنوا بالأسباب ولكن اطمأنوا برب الأسباب، اطمأنوا بالملك سبحانه وتعالى.

إذًا كمُلخَص عام لهذه السورة:

هناك أزمنة شرفها الله يستغلها المؤمن بالطاعات، هذه الأزمنة هي التي تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، هناك صنف من الناس أعطاه الله الأسباب مثل ذات العماد أو الصخر بالواد أو ذي الأوتاد، هذه الأسباب جعلته يطغى، فلمَّا طغى أكثر في الأرض الفساد، ولما أكثر الفساد وكان مسيطرًا على الأسباب اعتقد واهمًا أنَّه هكذا يحبه الله، وكما أن عنده مال وبنين في الدنيا سيكون عنده المال والبنون في الآخرة، يقيس مقاييس الآخرة على مقاييس الدنيا، فأخبره الله بأنَّ هذه طريقة تفكير ضالة لا يفكر بها إلا الذي يحب المال حبًا جمًا، والذي يأكل الميراث من حلال أو من حرام.. (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا – وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[الفجر:19–20]، وهذه الموازين ستنقلب وتظهر الحقيقة.. (كلا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا – وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)[الفجر:21–22] وهؤلاء الذين ظلموا الناس وعذبوهم في الدنيا لهم عذاب مخصوص يوم القيامة وكما عذبوا الناس يعذبهم الله عذابًا لا يُعذبه أحدًا من العالمين، ثم تختم السورة بنداء (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)[الفجر:27]

نسأل الله عزَّ وجل أن يجعلنا من الذين اطمأنوا بطاعة الله عزَّ وجل.. وأن يرزقنا حسن الخاتمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.